

(١)

**خيرية الأمة وخيرية نبيها
وكيف نحقق خيرية الأمة الآن ؟**

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد كرم الله (عز وجل) الأمة المحمدية ، وبَيَّن فضلها ومكانتها ، وخيريتها بين الأمم ؛ وهذه الخيرية أمانة ومسئولية قبل أن تكون تشريفاً وتكريماً ، حيث يقول الحق سبحانه : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : { أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ } .

ولا شك أن الأمة الإسلامية استمدت خيريتها من خيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو رسول الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو من قرن الله (عز وجل) ذكره بذكره في كل وقت وحين ، وهو من جمع الله له النبيين فأمنوا به ، وصلوا خلفه أجمعين ، وهو من تكاملت رسالته مع الرسالات السابقة ، حيث يقول سبحانه : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } ، فهو (صلى الله عليه وسلم) حظنا من الأنبياء ، ونحن حظه من الأمم ، فما أسعدنا بشرف الانتماء إليه (صلى الله عليه وسلم) ، والله در القائل :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بأخصمي أطأُ الثرى

(٢)

دخولي تحت قولك يَا عبادي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا
إن الحديث عن خيرية الأمة المحمدية ، وخيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ليس
حديثاً بدافع التفاخر أو التعالي أو العنصرية ، بل هو حديث من منطلق تحمل
الأمانة ، وأداء الرسالة ، والشعور بالمسئولية ؛ لأن الخيرية التي وصف الله (عز وجل)
بها الأمة المحمدية ليست خيرية مطلقة دون ضوابط أو علامات ، فقد جعل الله (عز
وجل) لهذه الخيرية مقومات إذا أخذت بها الأمة ، وقامت بواجبها نحو أدائها
تحققت لها هذه الخيرية ، ومن هذه المقومات تطبيق القيم والمبادئ والأخلاقيات
التي جاءت بها الرسالة المحمدية بمفهوم شامل يحقق التسامح والتعايش السلمي
بين البشر جميعا ، ويدفع المسلم لتحقيق الخير والنفع لكافة الخلق ، حيث يقول نبينا
(صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ ، وَلَا يُؤْلَفُ ،
وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ
لِلنَّاسِ) .

وحتى تحقق الأمة هذه الخيرية بمفهومها الشامل الذي يجعل الإنسان يحب
الخير لغيره كما يحبه لنفسه ، يجب أن تدرك الأمة المعنى الحقيقي للوسطية التي
تحمل أبناء الأمة على التوازن والاعتدال في كل الأمور ؛ من فهم مقاصد الدين ،
وتحقيق مصالح المجتمع ورفح الناس ، والعمل من أجل إعمار الكون ، والفوز في
الآخرة ، ويتأتى ذلك بالموازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد وفق منهج
الإسلام المستقيم البعيد عن الإفراط والتفريط ، لذا فقد حذّر الإسلام من جميع
ألوان التشدد والغلو ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) ، وكررها
ثَلَاثًا ؛ لبيان خطورة ذلك ، وهذه الوسطية الصحيحة هي التي تؤهل الأمة لتكون
جديرةً بالقيام بحق الشهادة على سائر الأمم كما أراد الله لها ، في قوله تعالى :

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} .

ومن مقومات تحقيق خيرية الأمة : **الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر** ، حيث يقول سبحانه : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ، وهذا يتطلب أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقله تعالى : {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} لا يتم إلا بتحقيق المعروف في الوسيلة وهي أسلوب الدعوة ، وفي الغاية وهو الفعل المأمور به ، فإذا تحول أسلوب الدعوة إلى تشدد فإن من فعل ذلك قد خالف الضوابط الشرعية التي أصلها الشرع الحنيف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حيث يقول سبحانه : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} .

والمتدبر في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وهدية في دعوته ، ووصيته لأصحابه يجد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم الناس ، يأخذ بأيديهم ، ويبين لهم الحق برفق ولين ورحمة وذلك دون أن يقلل من شأنهم ، أو ينقص من أقدارهم ، والأدلة على ذلك من سيرته العطرة الشريفة أكثر من أن تحصى أو تعد ، ومن ذلك : ما كان من معاوية بن الحكم السلمي ، حيث قال : بَيْنَمَا أَنَا أَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَاتَّكَلْ أُمَامَهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصِمُّونِي سَكَتُ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَأَيْ هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، وَاللَّهِ مَا

(٤)

كَهَرَنِي وَلَا ضَرْبَنِي ، وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلِحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلَكْتُ ! فَقَالَ : (مَا أَهْلَكَ؟) . قَالَ : وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي ، وَأَنَا صَائِمٌ . وَفِي رِوَايَةٍ : "أَصَبْتُ أَهْلِي فِي رَمَضَانَ" ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تَعْتَقُهَا؟) قَالَ : لَا ، قَالَ : (فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟) قَالَ : لَا ، قَالَ : (فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِينًا؟) قَالَ : لَا ، قَالَ : فَسَكَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِمَكْتَلٍ فِيهِ تَمْرٌ ، فَقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَيْنَ السَّائِلُ؟) ، قَالَ : أَنَا ، قَالَ : (خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ) ، فَقَالَ : أَعْلَى أَفْقَرِ مَيِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَ اللَّهِ مَا فِي الْمَدِينَةِ أَهْلٌ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ! فَضَحِكَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ثُمَّ قَالَ : (أَطْعِمَهُ أَهْلَكَ) .

كما أن قوله تعالى: {وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} متعلقٌ أولاً بكون المنكر الذي يُنهى عنه مُجمَعاً على إنكاره ، كقوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) ، أما المسائل التي يكون الخلاف فيها سائغاً ومعتبراً بين أهل العلم فلا إنكار فيها ، فإن القاعدة الفقهية تقرر أنه: (لا ينكر المختلف فيه، وإنما ينكر المُجمَع عليه).

(٥)

على أننا نؤكد على أمرين في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأول: أن أشد المنكر ما كان يتعلق بأمر عام؛ لأن الأمور العامة تتعلق بحقوق الناس جميعاً، وليس حقاً لفئة معينة، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات؛ لذا كان التعدي على المصالح العامة من أشد أنواع المنكر.

الثاني: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يكون منضبطاً بضوابط الشرع الحنيف، مراعيًا اختصاص من أناط الله بهم ذلك من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم، انطلاقاً من قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)، فاليد للحاكم أو السلطان، واللسان للعلماء، والقلب لعامة الناس.

كما أن من أهم مقومات خيرية الأمة **تحقيق الإيمان بالله (عز وجل)**، فالإيمان بالله (عز وجل) يهدي صاحبه إلى كل خير، قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ}، وبه يحيا الإنسان حياة طيبة، مراقباً لله (عز وجل) في كل حركاته وسكناته، فلا يعتدي على حق غيره، ولا يأخذ ما لا يحل له، فيأمنه الناس ويألفونه، وهذا هو جوهر الإيمان وحقيقته؛ لذا قال (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).

أما من انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن حقيقة الإيمان فقد افتقد روح الإيمان، وضيع حقيقته، وقد صرح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عمن يؤدي جاره، أو من بات شعبان وجاره جائع وهو يعلم، فقال (صلى الله عليه وسلم): (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارَهُ

(٦)

جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ)، فالإيمان الحقيقي هو الذي ينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد والغل، والغدر والخيانة، والفساد والإفساد، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه ويظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في الكون والحياة، وتعامله مع خلق الله أجمعين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
إخوة الإسلام :

إن من أهم مقومات خيرية الأمة تحقيق الرحمة للعالمين ، وتحويلها إلى واقع نتعاش به في حياتنا ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطباً نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } ، فنحن في حاجة ماسة إلى رحمة الطبيب بمرضاه ، والمعلم بطلابه ، والصانع بمعاونه ، ورب المال والأعمال بعماله ، والعالم بمتعلميه وسائليه ومستفتيه ، ورئيس العمل بمرءوسيه ، والوالد بولده ، والولد بوالديه ، والأخ بأخيه ، والزميل بزميله ، فما أحوجنا إلى التخلق بأخلاق الإسلام النبيلة ، وقيمه الراقية ، وأن نعمل على أرضية إنسانية مشتركة ، لا ينتزع الإنسان فيها من إنسانيته ، ولا تنتزع منه إنسانيته ، حتى يشعر الإنسان بأخيه الإنسان ، بآماله ، وآلامه ، وأوجاعه ، ولنبدأ بأنفسنا أمة وأفراداً مرددين : يا أمة الأخلاق عودي ، فسبيل الأخلاق هو سبيل الرشاد والتحضر والتقدم والرقي .

(٧)

وختامًا .. لا شك أن الحديث عن خيرية الأمة وبيان فضلها ومكانتها يمنح أبناءها الثقة في مواجهة التحديات ، ويكون دافعًا لهم نحو التقدم والتحضر ، والجد والاجتهاد في العمل والإنتاج ، وإن من أوجب الواجبات على الأمة الآن أن تسعى جاهدة لتحقيق الخيرية التي ميّزها الله (عز وجل) بها ، وأن تتحمل مسؤوليتها وتؤدي رسالتها على الوجه الأكمل ، ولنعلم أننا جميعًا موقوفون بين يدي الله (عز وجل) ، ومن علم أنه موقوف علم أنه مسؤل ، ومن علم أنه مسؤل فليعد للسؤال أمام الله جوابًا ، فقد قال تعالى: { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } .

ألا ما أحوجنا إلى أن نُجسّد بأفعالنا وأحوالنا وأقوالنا خيرية التعاليم الإسلامية وسموها ورقبها ، لننال بذلك رضا الله (عز وجل) ، ونقدم للعالم شهادة عملية على أن الإسلام دين الحضارة والبناء والإنسانية بكل معانيها ، بعد ما تسلت الأفكار الهدامة إلى عقول بعض أبناء الأمة من خلال أناس زعموا أنهم يتحدثون باسم الإسلام ونبيه، والإسلام ونبيه منهم براء.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطنًا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ أمتنا ووطننا ، وأهمنا رشدنا ، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا .